

منهج الأدب الإسلامي في السيرة الذاتية

د / محمد رجب البيومي

السيرة الذاتية

هي السيرة التي يكتبها الإنسان عن نفسه، مسجلاً انطباعاته الشخصية، عن أدوار حياته، بمواقفها المختلفة، وأحداثها المترامية، وهي تتسع لكل ما يصوره الكاتب من ذكريات حياته، في أي أسلوب يراه، وقد يكون التسلسل المطرد المتناسق في تتبع الأحداث وتفسيرها المنطقي، على نسق من الوحدة المتصلة الحلقات، البعيدة عن الفجوات، أرقى أنواع الترجمة الذاتية، ولكننا لا نمنع أن يكون لكل كاتب منحاه في تسجيل أحداثه كما يشاء، والناقد الأدبي لا يستطيع الموازنة بين شتى الاتجاهات التعبيرية، ليفضل اتجاهاً على اتجاه، ولكن هذا التفضيل لا يمنع أن يكون المرجوح ضرباً من ضروب التعبير الأدبي عن النفس، وإن كان هناك ما يريجه، فلكل مكانه المعلوم.

من كل نقيصة، ويرى حياته مثلاً رفيعاً للسلوك الإنساني، واتجاه من يفتخر بنزواته الخاصة، ويمعن في تصوير لحظات الضعف إمعان من يعتقد أنه صاحب رأي حر جريء، هذان الاتجاهان يجدان تصحيحهما الصائب فيما يسته الأدب الإسلامي من منهج صادق، يجعل السيرة الذاتية فناً رفيعاً يرضي المشاعر النبيلة، ويرتفع بالأحاسيس البشرية إلى مستوى الطهر الإنساني! وليس معنى ذلك أننا نفترض المثالية في كل كاتب يتحدث عن نفسه، بل معناه أننا نفترض فيه أن يكون قاضياً عادلاً، يرى الفضائل فيحبذها ويشيد بها، ويرى الرذائل فيعترف بخطئها، ويشرب إلى حياة كريمة تتجنبها، وإذا كان ذلك يكون صاحب الترجمة الذاتية فناً يشهد ارتقاء البشرية، ويحلم بازدهار السعادة الشاملة للفرد والمجتمع.

وليس الذي أقوله وعظاً خطيباً، ولكنه حقيقة علمية مقررة، لأن الأدب في لبابه تعبير عن حقائق الوجود، كما تنطبع في نفس الأديب، والأديب إذا كان ذا نفس ذات أشواق سامية، ونوازع فاضلة، فإن مرآته الأدبية تبرز الكمال الخلقي في أجمل ملامحه، وأصدق قسماته، فلا يحس غير الإحساس الفاضل، وبالتالي يجيء تعبيره عن هذا الإحساس بريئاً من مثالب الانحدار، وقد يظن بعض الناس أن صور الكمال الإنساني تزوير للنفس البشرية، لأنها تجمع بين الارتقاء والهبوط، وهذا ظن لا موضع له لدى الأديب الإسلامي، لأنه حين يعترف بنقائص النفس الإنسانية، لا يقتصر على هذا الاعتراف، بل يرسم سبيل التخلص منه، لا سيما إذا كانت الفطرة الإنسانية الأولى نقية طاهرة، وأن

نطمح لسيرة
ذاتية تسمو بالأفكار
وتنساق مع الروح المؤمنة
في التصوير والتحليل

وحين نتحدث عن منهج الأدب الإسلامي في السيرة الذاتية نبدأ بتسجيل ما لاحظته الناقدون من مآخذ توجه إليها، لأن المنهج الذي ندعوا إليه يحتم تجنب هذه المآخذ، وبتوضيح الأخطاء يفسح مجال التصويب عن بصيرة واعية وبرهان مقنع.

فنحن نعلم أن صاحب السيرة الذاتية - في كثير مما طالعناه - يدافع بالحق والباطل عن نفسه في أكثر ما يكتب، وقد يكون معتقداً صواب ما يقول، حين يجزم بأنه يسطر الحقائق دون تحيز، ولكن هذا الاعتقاد تهيمن عليه عوامل لا شعورية، تدفع الكاتب إلى اتجاه خاص يبرر كل ما يأتي به من الأعمال، وفيها ما لا يقبل التبرير عند النظر المحايد، وإذن فما يقوله صاحب السيرة الذاتية، لا يكون وثيقة تاريخية صادقة إلا إذا أيدته أقوال معاصرة، تلزم الحياد التام، وهنا تكون السيرة الذاتية رافداً من روافد التاريخ حين تتفق ولا تختلف، ولكنها لا تعدو أن تكون وجهة نظر ذاتية حين تعبر عن شعور شخصي لإنسان لا لبس الأحداث، وانفعل بها مؤثراً، ومتأثراً، وهذا وحده شيء كبير.

على أننا نجد في الجهة المقابلة من كتاب السيرة الذاتية، فريقاً لا يدافع عن أخطائه، بل يسجلها وكأنها عمل مجيد، فهو يتابع لحظات الضعف في حياته تتابعاً مطرداً، وقد يباهي بها معتقداً أنه أوتي جرأة التعبير وشجاعة الرأي، وكتب الاعترافات في الأدب الغربي، قد شجعت على هذا الاتجاه، حتى وقر لدى بعض الكاتبين أن لحظات الضعف بما تنوء به من شرور أمتع ما يوجهه الكاتب إلى قارئه من حديث في ترجمته الذاتية، هذان الاتجاهان المختلفان في الترجمة الذاتية، اتجاهاً من يرى نفسه

الأفئدة وهمسات الخواطر، ونبضات الأفكار ما يدل على استبطان ذاتي يصل إلى أبعد القرارات المستترة في شغاف القلوب!

وما أسقوا في لفظ، وما انحدروا في تصوير، بل كان الأدب الإسلامي الرفيع يعصمهم من مهاوي التبذل، ومساقط الإسفاف.

إن ارتقاء الحس هو أول خصائص الأديب المسلم، لأن مثله الدينية الرفيعة ترتقي به إلى حيث ينأى عن مزالق الائم، وإذن فمن الواضح أن يكون شرف الغرض، أول

خطوات المنهج الإسلامي في كتابة السيرة الذاتية، ونحن الآن نقرأ قصص الحب المتداولة، فنجد منها ما يدفع إلى الرذيلة السافرة دون حياء، كما نجد من يحبذ هذا الاتجاه، فيقول إن النفس البشرية تمارس الرذيلة، فلا بد أن نصديق في تصويرها، وقد فاتهم أن تصوير الرذيلة ذو اتجاهين، اتجاه يدفع إلى معاداتها بما يصور من عواقبها

الأديب المسلم لا ينحرف إلى مهاوي الرذيلة وهو يسجل سيرته لأنها بعيدة عن هذه الأخطاء

الأليمة، وكوارثها المحدقة، وهذا ما تفتقده في أكثر ما يكتبون، واتجاه يدفع إلى الإغراء بها، وكأنه يراها حلاً طبعياً لأزمات الجسد، وهو ما ننكره، لأن العلاج هنا سم قاتل، وموت زعاف، وإذا كان الحديث عن الحب مهوى أفئدة هؤلاء، فإننا نقدم مثلاً طاهراً عنا فيما كتبه الإمام ابن حزم من اعترافاته العاطفية في كتابه الشهير (طوق الحمامة)! إذ تغلغل في تشريح هذه العاطفة النبيلة، لا لينحدر بقرائه إلى المزالق المنكرة، بل ليرتفع بهم إلى فضاء المروءة والشمم الكريم، ولم يكن الكاتب الكبير انطوائياً معزلاً دنيا الناس، فيقال إنه لم يجرب فيقع، بل نشأ في بيت الوزارة، وفي أعرق منازل الترف والأبهة والثراء، وحوله من الأعوان من يرجو عطفه، ويتلمس مواقع رغبته، ولكنه في وسطه المغربي، كان محباً شريف النفس، طاهر الذيل، وخطراته التي سطرها في كتابه من أنفس الخواطر الوجدانية، وأشجاء رنيناً، فقد صارع أمواجاً وجدانية، ليس في طوقه التغلب عليها إلا بجهد جاهد، وحين هدأت نفسه بعد الصراع، خلا إلى قلمه ليسجل ما عاناه من قسوة الهجر، وبلاء المراقبة، ولوعة التجني، وحرارة العتاب، وخطر المنافسة، وبلاء الوشاية، ومرارة الندم، ولكل من هذه المواقف، مشهد يروى، ولمحات تسجل، ولكن الضمير الطاهر العف يقف مرشداً أميناً، ليستشف أظهر المشاعر، وأنفس الأحاسيس، فإذا شئنا أن نسجل بعض هذه المواقف، فإننا نختار ما

انتكاسات المهبوط مما يسهل علاجه، إذا صدقت النية الخالصة، وقويت العزيمة الصادقة، وكما تنجح التربية الإسلامية في الارتقاء بالإنسان إلى آفاق الفضيلة، فالأدب الإسلامي إحدى وسائل هذا الارتقاء، وفي تسجيل السيرة الذاتية مجال فسيح لتنمية الفضائل، ومحاربة النقائص، ولن نلقي الكلام جزافاً، فلدينا في تراثنا الأدبي التليد، ما يصلح أن يكون مثلاً للترجمة الذاتية التي أعنيها من ناحية الارتقاء الوائب بالنفس الإنسانية، وعلاجها الصائب للتخلص من

أدرانها، وقد نختلف في طريقة التعبير الأدبي فنحبذ اتجاهاً أسلوبياً عن اتجاه آخر، كما نلحظ في الأداء التصويري فجوات يجب أن تملأ، ولكن الاختلاف في المنحى التعبيري لا يمنع الاتفاق على الرسالة الأدبية الهادفة، التي يضعها الأديب الإسلامي نصب عينيه حين يكتب الترجمة الذاتية وسأحاول أن أشير إلى بعض هذه التراجم التراثية، في مجال الاستشهاد والتمثيل، لأن القواعد النظرية وحدها لا تضع المثال المنشود،

دون أن تقرر بتطبيق أدبي يقدم الشاهد الملموس، على أن اختيار ما أعنيه من النماذج الدالة، ليس من السهولة في مثل هذا المجال المحدود، إذ لدينا كتب كثيرة تنحو المنحى المستنير، كتبها أعلام الفكر الإسلامي منذ نشأت الكتابة التأليفية الحقيقية، مبتدئة بأديب العربية الكبير الجاحظ، وقد نشأت مختلطة غير متميزة، إذ كان يرصد الكثيرون مشاهدهم وأحاسيسهم من خلال الموضوعات العامة، فيلتقطها القارئ الدارس التقاطاً، وقد تسطع على فترات كما يسطع البرق في غيم متكاثف، وستجاوز هؤلاء إلى من أفردوا اعترافهم الناطق بما كابده من التجارب في كتب مستقلة، وهم بعد من أعلام الفكر الإسلامي النابه، ولهم في تاريخه الحافل مقامهم المشهود.

لقد تعمدت أن يكون ما أختاره من النماذج بين ما تركه أعلام الفكر الإسلامي من إبداع، فقد وقر لدى بعض المتسرعين أن علماء الإسلام، وهم أئمة الفقه والحديث والإرشاد، لم يكونوا ذوي خطرات فكرية، ترتفع بهم إلى مصاف كبار الأدباء، ولكن الواقع الملموس ينطق بنسوغهم الأدبي، وتحليقهم الإبداعي، وإذا كان الأئمة الكبار من أمثال ابن حزم والغزالي وابن الجوزي من أعلام التشريع والجدل العلمي، فهم من كبار الأدباء بما سجلوه من تجاربهم الذاتية، حين تحدثوا عن نفوسهم حديث الصدق الكاشف، فأظهروا من خلجات

وإذا كان ارتقاء الحسن أول سمات صاحب السيرة الذاتية التي تتسم بطابع الأدب الإسلامي. فإن الصفة الثانية هي صدق القول، فكاتب الترجمة مقيد بحقائق ما جُوبه به من المعضلات، فلا يجوز له أن يفتعل بطولية زائفة، أو يكتم حادثة تغلب على صعوبتها، ليكون مثالاً لما يقتدر عليه من التذلل، والتزام الصدق قد يكون عسيراً بعض الشيء، على من يسجل أدوار الصبا والشباب في عهد متأخر؛ لأن الذاكرة لا تستعيد كل شيء، بل ربما اختلط حادث بحادث، أو تشابكت تجربة ذاتية، بتجربة غريبة، قرأها صاحب الترجمة منذ زمن بعيد، واختلطت بنفسه، فظنها وقعت له، أما من يكتب ذكرياته القريبة فهو بمنجاة من النسيان في أكثر أموره، وصاحب الترجمة إذا نسي فأخطأ فيما كتب عن طريق السهو، لا يعتبر كاذباً جانب الواقع عن تصميم، لأن الأعمال بالنيات، وقد رأينا نقرأ يكتبون ما ظنوه حقيقة، ثم ووجهوا بتصحيح من ناقدتهم، فاعترفوا بما وقعوا فيه من السهو، ولا ضير في ذلك، فللطاقة البشرية حدودها في التذكر والاستيعاب، وإذا جاز لكاتب ما أن ينسى تفاصيل بعض الحوادث الجزئية فإن الأحداث الكبيرة في حياته تظل عالقة بخاطره، لأنها بوقعها القوي جزء من حياته، وهنا يتحتم الصدق الدقيق في تسجيل ما كان على وجهه الصحيح.

أذكر في هذا المجال ما كتبه الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي عن تجاربه الشخصية في كتابه الذائع (صيد الخاطر)، حيث كان شجاعاً كل الشجاعة في تسطير ما لاقاه من المكابدة النفسية، إذ واجه الحقائق مواجهة من يلتزم حدود الصراحة النزينة، دون اعتساف في تبرير موه، أو اعتذار ملفق، وقد تحدث عن وسأوسه وظنونه، حديث الإنسان ذي الرغائب المتعارضة، والنوازع المتضاربة، ولم يشأ أن يحجب ما تورط فيه من هنات، لأنه يعلم أن عين الله تتطلع على الخافي المستتر من دفين الخلجات، وإن ظلت محجوبة في الضمائر، دون أن تنطلق إلى فضاء البوح، يعلم الإمام ذلك تمام العلم، فهو مضطر إلى أن يجابه هذه الخلجات النفسية المكنونة؛ لأنها جزء متصل بنفسه، وما دام قد استشعرها استشعاراً قوياً، فهو مسئول عنها أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتلك حساسية نبيلة، لأن الإنسان لا يحاسب على خواطره الصامتة، بل يأتي الحساب عند التنفيذ الفعلي بعد الهم المتردد! وهذا ما يعرفه ابن الجوزي، ولكنه يربأ بنفسه أن تغد خواطر السوء إلى نفسه، وإن لم تجد باب التنفيذ، لذلك نجده يحاسب نفسه كثيراً على هذه الفرطات في أكثر من موقف كأن يقول:

«نازعنتي نفسي إلى أمر مكروه في الشرع، وجعلت تنصب إلى

حكاه ابن حزم عن هيبة اللقاء، ممزوجة بحلاوة الأمل، ورقة الاعتذار، وخشية العاقبة، وما ينحو هذا المنحى، فيما يتجلى في قول ابن حزم «هل شاهد مشاهد، أو رأت عين، أو قام في فكر، ألد وأشهى من مقام نام عنه كل رقيب، وبعد عنه كل بغيض، واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنوب وقع، فابتدأ المحب في الاعتذار والخشوع والتذلل، والإدلاء بحجته الواضحة بين الإدلال والإذلال، والندم لما سلف، فطوراً يدل ببرائته وطوراً يريد العفو، ويستدعي المغفرة، ويقر بالذنوب

الأدب الإسلامي من وسائل الارتقاء بالإنسان إلى أخلاق الفضيلة

له، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض، يسارقه اللحظ الخفي، وربما أدامه فيه، ثم يبسم مخفياً لتبسمه، وذلك علامة الرضا، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، وذهاب السخط، وقبول العتاب،! هذا مكان تتقاصر دونه الصفات، وتتلكن بتحديد الألسنة، ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعادل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء، فما رأيت أشد تبجحاً، وأعظم سروراً، بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه، وصحة مودته له، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمن، بين يدي عاشق غضبان، قد غمره السخط، وغلب عليه الجفاء، ولقد امتحنت الأمرين، وكنت في الأولى أشد من الحديد، وأنفذ من السيف، لا أجيب إلى الدنية، ولا أساعد على الخضوع، وفي الحالة الثانية أذل من الرداء، وألين من القطن، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجح، وأغوص على دقات المعاني بياني، وأفتن في القول فتوناً، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي» (١).

قلت لها: قدري أن ذلك الأمر مباح قطعاً، فوالله الذي لا إله إلا هو، لا عدت إليه فاناقطع طمعها باليمين والمعاهدة، وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها، لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير، فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن».

هذا هو الصراع الناشب في صدر حائر بين الحرمة والإباحة، بين الاقدام والتردد، وإذا كان الحل الطاهر النظيف قد أدرك صاحب الصراع، فإن الصدق في تحليله وتعليقه، واليقظة في كشف

ارتقاء الحسن خطيطة ملازمة للأديب المسلم لبعده عن مزالق الإثم

نوازعه وميوله مما يرتفع بأسلوبه الأدبي إلى مستوى يجعله مناط الاحتذاء.

فإذا تركنا ما يلزم من صدق التجربة، ووصف الصراع في مراحل المتعاقبة منذ بدأ إلى أن تأزم فإننا نؤكد صفة ثالثة هي من أخص صفات المنهج الأدبي في السيرة الذاتية، وهي قوة الترابط بين المعاني، وهي صفة نفتقدها كثيراً عند من يكتبون سيرهم تحت عناوين مذكرات أو يوميات، أو اعترافات، إذ تجد بعض هؤلاء لا يعنيه التسلسل المنطقي لأحداث حياته، بل يكتب كيفما اتفق، وفي هؤلاء من نشر يومياته في الصحف، بحيث يهيء خاطرة أسبوعية، يكتبها حين يتحدد موعدها، لا على حسب خطة رسمها منذ بدأ اليوميات فتأتي حبات العقد متسلسلة متسقة في نظامها المعهود، ولكنه يتذكر الحادثة قريبة أو بعيدة فيكتبها حين تغد إلى ذهنه، وقد يكتب عن حادثة تذكرها في طفولته، جوار حادثة تذكرها في كهولته، ثم يعن له أن يجمع اليوميات وفق تاريخ نشرها المتعاقب في كتاب مستقل، فتأتي الخواطر مبعثرة متنافرة، وكان عليه ما دام قد ارتضى أن يخرجها جميعها في سفر خاص، أن يعيد ترتيبها المترابط، وأن يحذف ويثبت، وفق ما يوحى به التسلسل المطرد، ولكن ما نوده لا

التأويلات، وتدفع الكراهة، وكانت تأويلاتها فاسدة، والحجة ظاهرة على الكراهة، فلجأت إلى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي، وأقبلت على القراءة، وكان درسي قد بلغ إلى سورة يوسف، فافتحتها، وذلك الخاطر قد شغل قلبي، حتى لا أدري ماذا أقرأ، فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي﴾ تنبهت، وكأني خوطبت بها، فأفقت من السكر، فقلت: يا نفسي: أفهمت؟ هذا حريص ظلم، فراعى حق من أحسن إليه، وسماه مالكاً، وإن لم يكن عليك ملك، فقال: إنه ربي، ثم زاد بيان ما أوجب كفه عما يؤذيه، فقال: أحسن مثواي، وأنت عبد على الحقيقة للمولى، وما زال يحسن إليك من ساعة وجودك وإن ستره عليك الزلل أكثر من عدد الحصى».

لقد كان ابن الجوزي صادقاً حين تحدث عن هاجس الكراهية! والكراهية في شرع الله دون الحرمة فالأمر الذي علقت به نفسه كان مكروهاً فحسب، ولكنه ظل متردداً بين أن يفعل المكروه أو لا يفعل، ثم هذه الله إلى الامتناع، حين توجه إلى درس التفسير، فاشتغلت أمام عينه آية كريمة خيل إليه أنه لم يقرأها من قبل، هي قول الله على لسان يوسف ﴿معاذ الله إنه ربي، أحسن مثواي﴾ فصرخ من أعماقه متعجباً كيف يرعى يوسف حق مالكة الإنسان، ثم لا يرعى ابن الجوزي حق مالك الناس جميعاً، وهو الله رب العالمين! ثم إن يوسف يقول عن سيده ﴿أحسن مثواي﴾ ويعد ذلك شيئاً جليلاً، فكيف برب العزة وقد رعى ابن الجوزي وستره، فلم يكشف للناس من سيئاته وهي أكثر من عدد الحصى فيما ارتكب! لقد جاءت الصحوة مباغتة، فأيقظت الواعظ الكبير.

وإذا كان فيما ذكره ابن الجوزي ما يصور صراعاً بين النفس اللوامة، والنفس الأمارة، فإن تصوير الصراع بنهضة الحي من منهج صاحب السيرة الذاتية حين يلتزم بأدب الإسلام، وقد أجاد ابن الجوزي تصوير هذا الصراع في مواقف كثيرة، وكان صدقه الواقعي شديد التأثير في نفس قارئه، ونحن نكتفي بمثال لذلك في قوله (٢):

«قدرت على لذة ظاهرة التحريم، وتحتمل الإباحة، إذ الأمر فيها مردد، فجاهدت النفس فقالت: أنت ما تقدر، فلهذا تترك، فقارب المقدور عليه، فإذا تمكنت، فتركت، كنت تاركاً حقيقة، ففعلت وتركت، ثم عاودت مرة أخرى، في تأويل أرثني فيه الجواز، وإن كان الأمر يحتمل، فلما وافقتها أثر ذلك ظلمة في قلبي لخوف أن يكون الأمر محرماً، فرأيت أنها تقوى علي بالترخيص والتأويل، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع، فإذا رخصت لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظوراً، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب، فلما لم آمن عليها بالتأويل، تفكرت في قطع طمعها من ذلك الأمر، فلم أر ذلك إلا بأن

حتى نصل إلى النتائج والتجارب، نتائج القلق من جدوى هذه العلوم، وتجارب الرحلة إلى المجهول ظمناً للمعرفة وطلباً لليقين، يقول الإمام الغزالي (٤) بتصرف كبير يكاد يوجز النقاط فحسب:

«ففرقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال، ولم أدر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين، ولا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة اشتغلاً بتزكية النفس، وتصفية القلب، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، فمكة، فالمدينة، ثم أخيراً إلى بغداد».

لا يهمننا أن نناقش الإمام في مقدماته ونتائجه، ولكن الذي يهمننا أن نؤكد أنه كتب ترجمة صادقة عن مرحلة عصبية من مراحل حياته، وأنه وفق فيما كتب، حيث أخلص القول، وارتفع بنفسه إلى المستوى اللائق بالبحاث العالم، وقد وصف الصراع المحتدم في أعماقه، فلم يدع بطولة، أو يزهو بنصر، ولكنه قدم وثيقة أدبية تعطي التجربة الحية، في أسلوب متماسك، يرتفع بقارئه، ويفتح له مجال اليقظة والاستبصار.

هذا بعض ما اخترناه من نماذج التراث، ليدل على الطابع الإنساني الكريم الذي يجب أن يحتضنه من يبدع السيرة الذاتية في ضوء الإسلام، فيصير أدبه النقي جديراً بالانتساب إليه، وواضح أننا لاندعو إلى احتذاء التعبير الأدبي، فلكل عصر فنه المتكامل في صوغ الترجمة، على النسق الأدبي المتطور، سواء كان في رواية أو مذكرات، أو مقالات متتابعة، أو حكاية على لسان متكلم، وكل ذلك له أمثله في الأدب الحديث، إنما نريد السمو بالأفكار، والارتفاع بالخواطر، والانسياق مع الروح المؤمن في التصوير والتحليل والتخييل، وإذا ذاك يشعر القارئ أنه ارتفع بما يقرأ، ولا يشعر أنه هوى إلى بئر مظلمة ذات دجى وتعفن، كما نلمس اليوم لدى من لا يفرقون بين رسالة الأدب، وسباب الطغام، ممن يقولون كل ما يطرأ على أذهانهم دون مبالاة، ولا يستوي الخبيث والطيب، ولو أعجبتك كثرة الخبيث...

الهوامش

(١) طوق الحمامة ص ١٨٠.

(٢) صيد الخاطر ص ٢٨٦.

(٣) المنقذ من الضلال ص ٨٨ وما بعدها بتصرف. تحقيق د. عبد الحليم محمود

(٤) السابق ص ١٤٤.

يحذف ويثبت، وفق ما يوحى به التسلسل المطرد، ولكن ما نوده لا نجدّه عند قوم متعجلين، وهم بلا شك يعلمون أنهم يقدمون طعاماً لم تنضجه النار، فجاء ثقيلاً يتعب المعدة، ويمنع التذوق المريء، ولدينا في كتب التراث نماذج مشرفة لما نرتضيه من الترابط المنسجم، وأضرب المثل بما كتبه الإمام الغزالي في أثره الخالد (المنقذ من الضلال) حيث عرض حياته العلمية عرضاً شائقاً، يصور مراحل رضاه، ومراحل سخطه، وكيف طرأ الشك على نفسه فيما يزاو من تعليم، وما مدى هذا الشك الذي سيطر على وجدانه حتى منعه أن يتكلم بلفظ، ثم أزعه عن موطنه، فقذف به إلى أقاصي الأرض، ناشداً بعض الهدوء النفسي، حتى استوى على الجودي بعون الله وتوفيقه.

ونحن نتابعه حين يقول (٣): «لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين، أغتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الجذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدني، من أول أمري، غريزة وفطرة من الله، حتى انجلت عني رابطة التقليد، وقد ظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي تنكشف فيه العلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الفرض والوهم، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتقنه هذا اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان، فقلت لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات، فأقبلت بجهد بليغ أتأمل في المحسّات، هل يمكن أن أشك فيها فأنتهى بي الأمر إلى الشك، لأن أقوى الحواس حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، فتحكم بنفي الحركة، ثم بعد التجربة تعرف أنه متحرك! وكذلك الكواكب تكون صغيرة في العين، وتثبت الآلات الهندسية أنها أكبر مما نرى! وإذن فقد بطلت الثقة بالمحسّات، فلاجرب العقلية! وقد بدا لي منه ما أشكل، إذ ربما يكون وراء العقل حاكم آخر، يكذب العقل في حكمه، فأنا أعتقد في النوم أموراً. وأتخيل أحوالاً، ثم أستيقظ فأعلم أن ما اعتقدته أثناء النوم باطل لا أصل له.

فلما خطرت لي هذه الخواطر، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر».

ثم جعل يعرض تجاربه العلمية في الفلسفة، وعلم الكلام، ومذاهب التربية والتعليم عرض العليم الموهل في حقائق هذه العلوم إغلا متمكناً لا شبهة في استقصائه، ولا يسع الوقت أن نفيض فيها ناقش به هذه العلوم، فالكتاب ذائع مشتهر، ولكننا نتجاوز ذلك